تلخيص رقائق القرآن

الشيخ إبراهيم السكران.

عطاء
البناء المنهجي

الفهرس

المقدمة: ٣
ذهول الحقائق: ٣
لحظة فداء: ٨
الإطراق الأخير: ٩
فضل الصُّخور على القلوب: ١١
الساعة الخامسة والسابعة صباحًا: ١٣
السجود بين السِّهام: ١٥
السَّهر المجهول: ١٨
هل مجتمعنا خيرٌ من مجتمع رسول الله ﷺ؟: ٢٠
الرَّاضون: ٢٢
أقوى النّاس: ٢٤
كأنكَ تراه: ٢٧
لم نفعلها، وحُسِبَت علينا! ٢٩
خاتمة: ٣٠

المقدمة:

في ظِلِّ تَزاحُمِ مشاغل الحياة ومُلهيَاتِها في هذا العصر، أشعر بأنّنا خسرنا الصّفاء والتّأمّل الرّقراق، ومن أفظع نتائج هذا: الانهماك المضني في تُرُوس المدَنِيّة المعاصرة، تلك القسوة التي تَدُبُّ إلى القلوب فتستنزف الإيمان، وتفزع السَّكِينة الدّاخليّة.

ألم يَحِن لنا أن نستَقطِع وقتًا نَهرُبُ فيه من هذا كُلِّه لنُعِيدُ شَحنَ أرواحِنا بكتاب الله؟

ألم يَأن لنا أن نُرقّق قُلُوبنا بِالقرآن؟

وكَوْن القرآن هو المفزع لِتزكيةِ النُّفوس، وتَرقيقُ القُلوب، وتصفية الأرواح وانتشالها من الثّقلة الأرضيّة، ليس استنباطًا أو وجهة نظر، بل هو حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن ذاته، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد كانت تمرّ بي مشاهداتٌ اجتماعيّةٌ كنت أتأمّل بعضها في ضوء القرآن، وأُسجّل خلاصة هذه التّأمّلات، وفي هذه الرّسالة التي بين يديك حصيلة بعض هذه التّأمّلات.

ذهول الحقائق:

في يوم الأربعاء زارني أحد أقاربي، وفي يوم الجمعة وصَلَّني خَبرُ وفاته، وقد مررتُ بِحوادث ووفيّاتٍ كثيرةٍ، لكن لِأوّل مرّة يَهجُمُ عَليَّ الإحساس بِقُربِ الموت ودُنوِّ الأجل بمثل هذه الصّورة.

لما كُنتُ أرى المعزِّينَ في منزل ذَوِيه، كُنتُ أقولُ لِنفسي: لماذا يَظنُّ الجميع بِأنَّ هذه مُصيبةُ غَيرِه، وأنَّهُ أشدّ ما يكون بُعدًا عن الموت؟ ننسى بأنَّ الله قَدَّر لِكُلٍّ مِنَّا ساعةً سَيقبِضُ فيها رُوحه قبل ولادته، بل وقبل خَلقِ السّماوات والأرض، ونحن نَسيرُ إلى تِلكَ السّاعةِ الآن بالعدِّ التّناقصيّ، ونَقتربُ كلّ دقيقةٍ من هذه اللّحظة الحاسمة؛ للانتقال للدّارِ الآخرة.

كثيرٌ من النّاس يَعرفُ هذا الشّيء مَعرِفَةً نظريّةً عقليّةً بحتةً، ولكنَّه لم يعشها يقينًا قلبيًّا غامرًا يَستَحوِذُ على تفكيره.

ومن أعاجيبِ النُّفوس أنَّ بعضهم يَكرهُ ذِكرَ الموتِ، ويَظُنُّ أنَّه حين يتحاشى ذِكرهُ فإنَّه يَبتعدُ عنه، وأنَّه حين يَذكرُهُ فسيكون قريبًا منه، ويَتكلَّفُ الأساليب المشروعة وغير المشروعة في مُدافعة الموت، وهذا الفِرارُ النّفسيّ صَوَّرهُ القرآن فقال تعالى: ﴿قُل إِنَّ الموتَ الَّذي تَفِرّونَ مِنهُ فَإِنَّهُ مُلاقيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وقال أيضًا: ﴿قُل لَن يَنفَعَكُمُ الفِرارُ إِن فَرَرتُم مِنَ الموتِ أَوِ القَتلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعونَ إِلّا قَليلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

فحتّى وإن فَرَرت من خَطرٍ ما، فإنّ ما ستعيشه بعد ذَلِكَ سَيظلُّ فترةً محدودةً، وصَوَّر القرآن الكريم صُورةً شبيهةً للفِرَار وهي «التّحايُد»، وهو أشبهُ بِمحاولة التّحاشي عن سهام الموت، يقول الله تعالى: ﴿وَجاءَت سَكرَةُ الموتِ بِالحَقِّ ذلِكَ ما كُنتَ مِنهُ تَحيدُ﴾ [ق: ١٩]، فلن يَنفعُ الفِرَار، ولن يَنفعُ التّحايُد، وستأتي ساعة الانتقال للدّار الأبديّة.

ومَن العَجيب أنَّ الإنسان يَسيرُ بِقدميهِ إلى الموضِعِ الذي كَتَبَ الله وفاته فيه وهو لا يَعلمُ القَدَر المخبوء، حيث يقول تعالى: ﴿قُل لَو كُنتُم في بُيوتِكُم لَبَرَزَ الَّذينَ كُتِبَ عَلَيهِمُ القَتلُ إِلى مَضاجِعِهِم﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والمراد أنَّ هذه اللّحظة التي تنتظرني وتنتظرك لا تقبلُ التَّقديم ولا التّأخير، الجَبَّار جلَّ جلاله، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُم لا يَستَأخِرونَ ساعَةً وَلا يَستَقدِمونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومن جُملةِ التَّعلُّقِ بِالأسبابِ المادِّيَّة أنَّ الأثرياء يتوهّمُون أنَّهم في قصورهم بعيدون عن الموتِ، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٨]، ولذَلِكَ فإنَّ فريقًا من النَّاسِ يَكرهُ فريضةَ الجهاد؛ لأنَّهُ يَظُنُّ أنَّها تُقَرِّبُهُ من الموتِ، وينسى أنَّ الموت قُرِّرَت له ساعةٌ مُعيّنةٌ قبل أن يُخلق، يقول تعالى: ﴿وَقالوا رَبَّنا لِمَ كَتَبتَ عَلَينَا القِتالَ لَولا أَخَّرتَنا إِلى أَجَلٍ قَريبٍ قُل مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ وَالآخِرَةُ خَيرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظلَمونَ فَتيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وهناك كثيرٌ مِن النَّاسِ نجوا من أماكن الموتِ بأعجوبة، وبِالمقابلِ هُناكَ من تُوفِّيَ وهو بِكاملِ الصِّحّةِ والأمانِ؛ وهذا لأنَّ الآجال محسُومةٌ قبل أن يُخلَّقَ النّاس، وبعضُ الجهلة إذا ذُكِرَ له أنّ رجلًا من النَّاس مَاتَ في سبيل الله يَقعُ في قلبه أنّ سَلامتهُ هو من هذا الموت نِعمةٌ من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فَإِن أَصابَتكُم مُصيبَةٌ قالَ قَد أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذ لَم أَكُن مَعَهُم شَهيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

لقد وقفت بعد هذه الجنازة المهيبة، وتذكّرتُ جملةً ممّن تُوفِّيَ من المسلمين، فكيف يأمنُ الإنسان ويَغفلُ وهو يرى النَّاس حوله يتناقصون؟

وقد أشَارَ القرآن إلى هذه المفارقة بين قُربِ الأجل في مُقابلِ استمرار الغفلة، فقال تعالى: ﴿اقتَرَبَ لِلنّاسِ حِسابُهُم وَهُم في غَفلَةٍ مُعرِضون﴾ [الأنبياء: ١].

وأخذتُ مرّةً أتأمّلُ أسباب هذه الإشكاليّة في كتابِ الله، فوجدت ثلاثة مشاهد صَوَّر القرآن تفاصيلها تَكشِفُ سِرًّا من أسرارِ مُشكلة «التّأجيل»، فهذه الخطايا التي لا زلنا نُواقِعُها لا تَجِدُنا غالبًا مُخطّطين للاستمرار عليها، وإنّما نَقولُ في أنفسنا أنَّها مُجرّد فترةٍ يسيرةٍ، ولكنّ الوقت يَنسَلُّ ونحن لا نَشعُر، حتّى نتفاجأ بِمَلَكِ الموت يَأخذُ أرواحنا.

- أخبرنا الله في كتابه عن فئةٍ من النَّاسِ حين يَحضُرُهُم الموتُ يسألون الله أن يُرجِعُهم؛ ليعملوا الأعمال الصَّالحة، يقول الله تعالى: ﴿حَتّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الموتُ قالَ رَبِّ ارجِعونِ ۝ لَعَلّي أَعمَلُ صالِحًا فيما تَرَكتُ كَلّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِن وَرائِهِم بَرزَخٌ إِلى يَومِ يُبعَثونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].
- وآخرون حين يَحضُرُهم الموتُ يَسألونَ الله فُسحَةً زمنيّةً يسيرةً ليتصدّقوا، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقوا مِن ما رَزَقناكُم مِن قَبلِ أَن يَأتِيَ أَحَدَكُمُ الموتُ فَيَقولَ رَبِّ لَولا أَخَّرتَني إِلى أَجَلٍ قَريبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصّالِحينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفسًا إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبيرٌ بِما تَعمَلونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].
- وآخرون يَحضُرُهُم الموت يُعلِنُونَ التَّوبة ويستغفرونَ الله، يقول الله تعالى: ﴿وَلَيسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذينَ يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ حَتّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قالَ إِنّي تُبتُ الآنَ وَلَا الَّذينَ يَموتونَ وَهُم كُفّارٌ أُولئِكَ أَعتَدنا لَهُم عَذابًا أَليمًا﴾ [النساء: ١٨].

ولكن في تِلكَ السَّاعةِ يكون الأوان قد فات، أمّا اليوم فأمامنا فُرصةٌ للقيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، والتَّصَدُّقِ، والتَّوبةِ.

والواقع المشاهَد اليوم أنَّ مِن أكثرِ ما يَنسِجُ حول العُيُون حِجابَ الغفلة «التّنافسُ الاجتماعيّ على الدُّنيا»، قال تعالى: ﴿أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ ۝ حَتّى زُرتُمُ المَقابِرَ﴾ [التّكاثر: ١،٢]، وتنتهي حفلة التَّكاثُر عند أوّل ليلةٍ في القبر، وحينها يَكتشفُ الإنسان أنَّه ضَيَّع حَياتَهُ المستقبليّة الحقيقة، ولكنّ هذا الاكتشاف بعد فوات الأوان!

وإذا وَفَّقَ الله الإنسان أن ينخلع من مُلاحظة ما يَكتَسِبُهُ الخلق، وأَقبلَ على ما هو أَعظمُ من ذَلك وهو صناعة المستقبل الأبديّ؛ فإنّه سيكتشفُ للحياة معنى أسمى من الحُطامِ الصَّغير المؤقّتِ، فمُقارنة تأقيت الحياة الدُّنيا بِأبديّةِ الحياةِ الآخرة تَجعلُ الدُّنيا رقمًا مُهمَلًا لا يَستَحِقُّ الذِّكر أصلًا، فالأبديّة ليست مائة سنةٍ، ولكنّها أبدُّ الآبدين بلا نهايةٍ، ثُمَّ قَارِن تلكَ الحياة الأبديّة بالدُّنيا التي لا تتجاوزُ سِنيّاتٍ معدودة، مُجرّدُ التَّأمُّلُ في مفهوم الأبديّة يَكادُ أن يَصِل بالنَّفسِ إلى أعظمِ مَراتِب العزم، فليس الأمر مؤبّدًا فقط، بل قد يكون مُؤبّدًا بِأعلى درجاتِ السّعادة في قُصور الجنّة ونعيمها، أو مُؤبّدًا في أَحَطِّ درجات الآلام الجسديّة والنّفسيّة في أودية النّار ولهيبها!

وكُنتُ أُلاحِظُ في كثيرٍ مِن كُتُب الفكر المعاصر أنَّها تَكادُ تخلو مِن ذِكر الموت؛ ظَنًّا مِنهم بأنَّ هذا يَصرِفُ الإنسان عن بِناءِ الحضارة والنّهضة، وهذا فهمٌ مغلوطٌ كليًّا؛ لأنَّ استحضار الموت واليوم الآخر هو الذي يدفع فعلًا للعمل الصَّالِح.

وترى أمثال هؤلاء التّغريبيّين يتندّرون بمن يُكثرُ من ذِكر الموت، بِالرَّغم من أنَّ انتظار الموت شُعبةٌ من شُعب الإيمان في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿مِنَ المُؤمِنينَ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيهِ فَمِنهُم مَن قَضى نَحبَهُ وَمِنهُم مَن يَنتَظِرُ وَما بَدَّلوا تَبديلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد كان أئمّة الأولياء في هذه الأمّة يَستَحضِرونَ دَومًا قُربَ الأجل ودُنوّ الموت، "فكان أبو بكرٍ إذا أَخَذَتهُ الحُمّى يقول: كل امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شِراك نعله".

والحقيقة أنَّ استحضار الحقائق الكبرى: كالموت، ولقاء الله؛ يُثمِرُ للمرء تصحيحًا هائلًا في مسيرتهِ العالميّة، والدّعويّة، والاجتماعيّة، ويَجعلُهُ يَقرأُ الأشياء على ضوء سُؤال: هل تُقَرِّب مِن الله وتَنفَعُ في اليوم الآخر أم لا؟

ولا يَزالُ هذا السُّؤال القلق يَقودُهُ ويُسيِّرُهُ حتّى تأتي لحظة لقاء الله فيحمد العاقبة: ﴿قالوا إِنّا كُنّا قَبلُ في أَهلِنا مُشفِقينَ ۝ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَينا وَوَقانا عَذابَ السَّمومِ﴾ [الطور: ٢٦،٢٧]، أمَّا الإنسان الغافل عن ذِكرُ الموت فَتَمُرُّ أوقاتُهُ وسَاعاتُهُ دُونَ أن ينتبه ويتساءلُ حولَ جدوى ما يصنع.

المؤمنُ المستحضِر لِحقيقة الموت ودنوّ الأجل يَبخلُ بِوقته أن يَذهبَ سُدى، وطَالِبُ العلمِ الجادّ الذي تَشَّبَع بِحقيقة الموت يدبّ إليه الزُّهد بالتّرف النَّظري، ويُصبحُ مَقصودُهُ في الكُتُب «مَعرِفة الهدى بدليلِهِ»، والمجاهِدُ الذي يُجاهِدُ التّيّارات البدعيّة والفكريّة المنحرفة إذا تشبّع قلبه بحقيقة الموت؛ صَارَ يَقتصدُ في ذكر النَّاسِ إلا بقدرِ ما يُبيّن الحقّ ويُظهِرُه، والمؤمِنُ الذي امتلأ قَلبهُ باليقين بلحظة القبر يَتحَرَّقُ على أوقاتِ الانتظار أن تَذهب في غيرِ ذكر الله، قال تعالى: ﴿الَّذينَ يَذكُرونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعودًا وَعَلى جُنوبِهِم﴾ [آل عمران: ١٩١].

تأمّل هذه السَّاعات التي فاتت من اليوم أو البارحة، هذه السَّاعات سَاعاتٌ من أعمارنا ولن تعود أبدًا، فإن كُنَّا عَمَّرنَاها بِعملٍ صالحٍ فإنّها تكون شاهدةً غدًا في صحائفنا، وإن ذهبت سُدى فيا حسرتنا في فُرصةٍ أُعطيت لنا ثُمَّ سُحِبت ولم نَستَغِلّها، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعوا أَحسَنَ ما أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَبِّكُم مِن قَبلِ أَن يَأتِيَكُمُ العَذابُ بَغتَةً وَأَنتُم لا تَشعُرونَ ۝ أَن تَقولَ نَفسٌ يا حَسرَتا عَلى ما فَرَّطتُ في جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السّاخِرينَ﴾ [الزّمر: ٥٥،٥٦].

لحظة فداء:

مَشهَدٌ مُؤثّرٌ مَرَّ بي قبل زَمنٍ قريبٍ، شَعرتُ معه كأنّني توقّفت عن التَّنفُّسِ، ثُمَّ في لَحَظاتٍ يَسيرةٍ طَافت بذهني ذِكرياتٌ لِقصصٍ كثيرةٍ سَمِعتُها، دعوني أوّلًا أُحدِّثُكُم عن هذه الذِّكريات والقصصِ التي هَجَمت عليَّ مُتزاحمةً في لحظاتٍ يسيرةٍ، ثُمَّ أروي لكم المشهد المؤثّر الذي استثارها من مَهجعِها.

مِن هذه القصص قِصّةُ صاحبٍ لي حكى لي بأنّه مرض في ليلةٍ وهو صغيرٌ، فبقيت والدته بجانبه تتوجّع له، وكانت والدته تتمتم بدعاءٍ وتقول: "يا ليته فيني ولا فيك".

فكنتُ أتعجّب كثيرًا كيف تتمنّى أن يكون المرض فيها؟!

ومن هذه القصص أيضًا قصّةٌ وقعت أمام النّبيّ ﷺ وأصحابه، يَروي عُمر بن الخطَّاب القصّة فيقول: "قَدِمَ عليَّ رسولُ الله ﷺ بسَبيٍ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تبتغي إذا وجدت صبيًّا في السَّبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النّار؟ قُلنا: لا والله وهي تقدر على ألّا تطرحه، فقال رسول الله: الله أرحم بعباده من هذه بولدها".

فتعجّب النّبيّ ﷺ من شدّة لهفةِ هذه الأمّ بصبيّها، حتّى كانت تلتقط صبيًّا إثر صبيٍّ من السَّبي فتلقُمُهُ ثديها، فيا سُبحانَ الله! ما أعظم مَشاعرَ الأمومة والأبوّة تجاه أطفالهم!

والكثير من القصص الأخرى، والمعنى المشترك بين هذه القصص هي أنَّها كُلَّها تَعكِسُ شِدّة شفقةِ الآباءِ والأمّهاتِ على فَلِذاتِ أكبادهم، والمشهدُ المؤثّرُ الذي هَيَّج كلّ هذه القصص في نفسي هو "آيةٌ" من كتاب الله كادت تَذهبُ بِلُبّي وأنا أقراؤها، فكلّ ما أعرفُ من رحمة الأبوّة والأمومة بأطفالهم فإنّه سيذهبُ بها هَول لحظةٍ من مشاهدِ النَّار يوم القيامة، فيتمنّى الأبُ العطوف، والأمّ الحنون أن يتخلّصوا من هذه النّار حتّى لو أرسلوا فلذات أكبادهم إليها، يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿يَوَدُّ المجرِمُ لَو يَفتَدي مِن عَذابِ يَومِئِذٍ بِبَنيهِ﴾ [المعارج: ١١]

ستأتي لحظة الفداء الكبرى التي تُصعقُ فيها النُّفوس من شِدّةِ الهلع حين تسمعُ فَوران نار يوم القيامة، وأمام ذَلِكَ المشهد فإنّ الوالد يَودُّ لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه، أيُّ رُعبٍ أكثرُ من هذا الرّعب

الذي يُنسي الوالدين مشاعر الأُبوّة والأُمومة؟ أيُّ مَشهدٍ مُخيفٍ ذَلِكَ الذي يُنسي الوالدين فَلِذاتِ أكبادهم؟ يا ربَّنا السَّلامة السَّلامة.

الإطراق الأخير:

قد أشارَ القرآن إلى مُفارقةٍ مُؤلمةٍ وهي: شِدّةُ قُربِ لِقاءِ الله مع كون الإنسان يغفل كثيرًا عن هذه الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿اقتَرَبَ لِلنّاسِ حِسابُهُم وَهُم في غَفلَةٍ مُعرِضونَ﴾ [الأنبياء: ١]، والقرآن أخبر عن الميعاد بطرقٍ كثيرةٍ متنوّعةٍ جدًّا، ولم تكن كثرتها مُصادفةً أو اعتباطًا، ولكنّها لِأغراضٍ لا تخفى على المهتمّ بمغزى كلام الله، والحقيقة أنَّه من بين الآيات التي تَحدّثت عن اليوم الآخر، لَفَتَ انتباهي وشَدَّني كثيرًا طائفةٌ من الآيات صَوَّرت النَّاس لحظة القيام من قُبُورهم، قال تعالى: ﴿وَلا تَحسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمّا يَعمَلُ الظّالِمونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُم لِيَومٍ تَشخَصُ فيهِ الأَبصارُ ۝ مُهطِعينَ مُقنِعي رُءوسِهِم لا يَرتَدُّ إِلَيهِم طَرفُهُم وَأَفئِدَتُهُم هَواءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢،٤٣].

سَنقومُ من قُبُورِنا شَاخِصةً أبصَارُنا، مُسرعين، ومُقنعين رؤوسنا ننظرُ من شدّة الأهوال، ومن شدّة التّحديق بحيث لا تَطرفُ العين، ومن شِدّةِ الفزعِ القُلوب فارغةٌ، والمقَصِّرُ حينها يَكونُ في حالة انكسارٍ وذلٍّ، يقول تعالى: ﴿وَلَو تَرى إِذِ المُجرِمونَ ناكِسو رُءوسِهِم عِندَ رَبِّهِم رَبَّنا أَبصَرنا وَسَمِعنا فَارجِعنا نَعمَل صالِحًا إِنّا موقِنونَ﴾ [السجدة: ١٢].

والخجل والذُّل يَجعلُ الإنسان يَنظرُ مُسارقةً، كما يقول تعالى: ﴿وَتَراهُم يُعرَضونَ عَلَيها خاشِعينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرونَ مِن طَرفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذينَ آمَنوا إِنَّ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم وَأَهليهِم يَومَ القِيامَةِ أَلا إِنَّ الظّالِمينَ في عَذابٍ مُقيمٍ﴾ [الشّورى: ٤٥]، والإنسان الذَّليل الخائف يَسوَدُّ وجهَهُ حتّى كأنَّ اللّيل البهيم يعلو محيَّاهُ، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّما أُغشِيَت وُجوهُهُم قِطَعًا مِنَ اللَّيلِ مُظلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

ومن الصُّوَر القُرآنيّة التي تَنخَلِعُ لها القُلوب صورة الجثوّ على الرُّكب في ذلك اليوم: ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدعى إِلى كِتابِهَا اليَومَ تُجزَونَ ما كُنتُم تَعمَلونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وكذَلِك وصف الله القلب من شِدّة الرُّعب بأنَّه من شِدّة خفقانه كأنَّما صعد إلى الحنجرة مع الصّمت المطبق: ﴿وَأَنذِرهُم يَومَ الآزِفَةِ إِذِ القُلوبُ لَدَى الحَناجِرِ كاظِمينَ ما لِلظّالِمينَ مِن حَميمٍ وَلا شَفيعٍ يُطاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وهُناك ستّة مواضع ذكر الله ذلك اليوم فيها ووصفه بأنَّه «بغتةً»، أي مفاجئٌ، قال الله تعالى: ﴿حَتّى إِذا جاءَتهُمُ السّاعَةُ بَغتَةً﴾.

والقرآن أكثر من ذكر اليوم الآخر بما لا يُوجدُ مِثلهَ في الكُتُب السَّماويّة، وجعل الله من أعظَمِ وظائف الوحي تَذكير النَّاس بِقُربِ لحظة لقاء الله، كما قال تعالى: ﴿رَفيعُ الدَّرَجاتِ ذُو العَرشِ يُلقِي الرّوحَ مِن أَمرِهِ عَلى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ لِيُنذِرَ يَومَ التَّلاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فهل نحن حين نتلو القرآن نَستحضرُ أنَّ مَن مَقاصِد القرآن تعميق استحضار اليوم الآخر في النُّفوس؟ وهل منحنا الآيات التي تُصَوِّرُ مشاهد اليوم الآخر منزلتها التي تستحقّها؟

لا شَكَّ أنَّ سبب الإطراق وخُشُوع الأبصار وتنكيس الرّؤوس وفراغ القلوب بسبب هَوْل العذاب والخجل من الأعمال، ولكن ثَمَّةَ أمرٌ أعظم من ذَلِك، وهو إدراكُ عَظَمة الله تَبَارَكَ وتعالى: ﴿يَومَئِذٍ يَتَّبِعونَ الدّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصواتُ لِلرَّحمنِ فَلا تَسمَعُ إِلّا هَمسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال أيضًا: ﴿وَعَنَتِ الوُجوهُ لِلحَيِّ القَيّومِ وَقَد خابَ مَن حَمَلَ ظُلمًا﴾ [طه: ١١١]. **وعَنَت: أي خَضَعَت وذَلَّت واستسلمت**، كما قال أهل التّفسير.

ومِن أهمّ ما يصنعه استحضار لقاء الله في النّفوس:

١. استشعار حيويّةٍ تَدُبُّ في النَّفس.
٢. إزالة العوالق والأوضار عن القلب، وتَغيّر نظرته حول كثيرٍ من الأمور.
٣. الزُّهد في الفضول؛ فيصبح المرء لا يُنفِقُ نظرهُ وسمعهُ ووقتهُ إلّا بِحسب الحاجة فقط.
٤. الإقبال على القرآن، فيُعِيد تكوين شخصيّته الفكريّة على ضوء القرآن، وإنَّه لغاية الخسارة أن يبني المثقّف المسلم شخصيّته من كُتبٍ فكريّةٍ مُنحرفةٍ.
٥. إقبال المرء على نفع إخوانه المسلمين في دينهم ودنياهم، وقد قال ﷺ: "مَنْ نَفَّس عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرب الدُّنْيا نفَّس اللَّه عنْه كُرْبَةً منْ كُرَب يومِ الْقِيامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسرٍ يسَّرَ اللَّه عليْهِ في الدُّنْيَا والآخِرةِ، ومَنْ سَتَر مُسْلِمًا سَترهُ اللَّه فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، واللَّه فِي عَوْنِ العبْدِ مَا كانَ العبْدُ في عَوْن أَخيه".

٦. الاستخفاف بالجاه في عيون الخلق، والتعلّق بالجاه عند الله جَلَّ وعلا، فمن وضع بين عينيه لقاء الله وكيف سَتُبَدّلُ الآخرة من منازل النّاس بشكلٍ انقلابيٍّ، كما قال تعالى عن الآخرة: ﴿خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]، عَلِمَ رُخص الشُّهرة والظُّهور والرّئاسة.

فضل الصُّخور على القلوب:

نَعرِفُ جَيِّدًا مِن خِلالِ تَجارِبنا اليوميّة أنَّ إيماننا في قلوبنا يتفاوت، فتَارةً يتصاعد، وتَارةً يَفتُر ويَتبلَّد، وهذه الأحاسيس لا يَكادُ يخلو أحدنا منها، ولكن إلى أيّ مدًى يا تُرى يقسو القلب ويتجمّد الإيمان فيه؟

● ما هي أدنى مراحل يبوسة القلب؟

صَوَّر القرآن حالةً مُخيفةً من حالات قسوة القلب، يقول الله جَلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ قَسَت قُلوبُكُم مِن بَعدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالحِجارَةِ أَو أَشَدُّ قَسوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

إنّه ليس كالحجارة فقط، بل قد يكون كما تُصوّر الآية «أَشَدّ قَسوَةً»، بل إنّ الله تعالى ذَكَرَ فضل الحجر على بعض القلوب، حيث قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنهُ الأَنهارُ وَإِنَّ مِنها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخرُجُ مِنهُ الماءُ وَإِنَّ مِنها لَما يَهبِطُ مِن خَشيَةِ اللَّهِ﴾، حتّى أنَّ قتادة إمام التّفسير قال: "عَذرَ الله الحجارة ولم يَعذُر شَقيّ بني آدم"!

● ما الآثار التي تستتبعُ هُجوم قسوة القلب؟

يَخسرُ القُدرة على الاتّصال بالله سبحانه وتعالى ومناجاته، فالله سبحانه يقدّر على العباد كوارث كونيّةً، يُريدُ منهم أن تدفعهم للتعلّق بالله، ومناجاته، والتضرّع له، ولكنّ من ابتُلي بقسوة القلب يُفلس في الوصول إلى هذه اللّحظات الرّاقية، قال تعالى: ﴿وَلَقَد أَرسَلنا إِلى أُمَمٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذناهُم بِالبَأساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُم يَتَضَرَّعونَ ۝ فَلَولا إِذ جاءَهُم بَأسُنا تَضَرَّعوا، وَلكِن قَسَت قُلوبُهُم وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ [الأنعام: ٤٢،٤٣].

• وهل يقف أمر قسوة القلب عند الحرمان من مقامات الإيمان الرّفيعة كالتّضرّع لله؟

لا طبعًا، فالمرء إذا قَصَّرَ في طاعة الله بدأ يتلمّس لِنفسهِ المخارج، ويَبحثُ عن قَولٍ يُوافِقُ تَقصيرهُ وهواهُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلنا قُلوبَهُم قاسِيَةً يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

فلا يَصبِرُ ويُسلِّم للنّصوص، ويَترُكُ مواضع الاشتباه إلّا من رَقّت قُلُوبُهم بالإيمان، ولا يَطِيشُ عَقلهُ أمام هذه النّصوص فيتّخِذُها تُكأةً لِتقصيرِهِ إلّا من قسا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿لِيَجعَلَ ما يُلقِي الشَّيطانُ فِتنَةً لِلَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ وَالقاسِيَةِ قُلوبُهُم﴾ [الحجّ: ٥٣].

قَسوةُ القلب ليست مُجرّد سببٍ للمعصية، فهي قد تكون نتيجةً وعُقوبةً من الله على المعصية ذاتها، كما قال تعالى: ﴿فَبِما نَقضِهِم ميثاقَهُم لَعَنّاهُم وَجَعَلنا قُلوبَهُم قاسِيَةً﴾، وكون الله يعاقب على الذّنب بالذّنب، هذا له نظائر؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَمّا زاغوا أَزاغَ اللَّهُ قُلوبَهُم﴾ [الصّفّ: ٥]، وهكذا فإنَّ الله يُعاقِبُ على قسوة القلب، إذا لم يُداوها المرء، بمزيدٍ من قسوة القلب.!

• قسوة القلب بشعةٌ، ولكن كيف تقع قسوة القلب؟

الحقيقة أنَّ قسوة القلب هي نتيجةٌ طبيعيّةٌ للمعاصي، ولكن ثَمَّة عاملٌ له خَصوصيّةٌ في ذَلكَ، وهو «بُعد العهد عن ذكر الله»، قال تعالى:﴿أَلَم يَأنِ لِلَّذينَ آمَنوا أَن تَخشَعَ قُلوبُهُم لِذِكرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكونوا كَالَّذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلُ فَطالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَقَسَت قُلوبُهُم وَكَثيرٌ مِنهُم فاسِقونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى:﴿فَوَيلٌ لِلقاسِيَةِ قُلوبُهُم مِن ذِكرِ اللَّهِ أولئِكَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾[الزّمر: ٢٢]، والمعنى، كما رجَّحه ابن جريرٍ الطّبريّ، أنَّ قلوبهم قست بِبُعدهم عن ذكر الله.

لقد مَنَحَ القرآن اهتمامًا واضحًا لهذه الظّاهرة؛ فوصفها وشرح أسبابها وآثارها، وهدّد صَراحةً من وقع فيها، لذَلِكَ لا يجب أن تكون شيئًا هامشيًّا في حياتنا، فإذن لا خيار لنا في اتّخاذ القرار العاجل والمبادرة بِمُداواة قُلُوبنا من هذه القسوة التي تُداهِمُنا، وقد أثبتت التّجارب أنَّ أنفذ الأدوية وأسرعها في مُعالجة قسوة القلب هو: تلاوة وتدبّر كلام الله سُبحانهُ وتعالى، كما في الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَديثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقشَعِرُّ مِنهُ جُلودُ الَّذينَ يَخشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وَقُلوبُهُم إِلى ذِكرِ اللَّهِ﴾ [الزّمر: ٢٣].

وقال عن الأنبياء: ﴿أُولئِكَ الَّذينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّن حَمَلنا مَعَ نوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبراهيمَ وَإِسرائيلَ وَمِمَّن هَدَينا وَاجتَبَينا إِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُ الرَّحمنِ خَرّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وقال عن الصَّالحين: ﴿وَإِذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسولِ تَرى أَعيُنَهُم تَفيضُ مِنَ الدَّمعِ﴾ [المائدة: ٨٣].

فإذا رأى متدبّر القرآن كيف يصف الله القرآن بِأنَّه تَقشعرُّ منه جُلُودُ المؤمنين، وتَلينُ قلوبهم له، وتَذرفُ مآقيهم الدّموع، أدركَ أنَّ هذا القرآن أنجع وسيلةٍ تَهزُّ القُلُوب، وتَطيرُ بها عن مُنحدرات القسوة، وكهوف الرَّان.

الساعة الخامسة والسابعة صباحًا:

ثمّة مشهدٌ لا أملّ من التّأمّل فيه، مشهدٌ يُصيبني بالكَمَد عند ذكراه، جوهره «المقارنة بين السّاعتين الخامسة والسّابعة صباحًا» في مدينة الرّياض.

في مشهدِ السّاعة الخامسة، تَجدُ طائفةً موفّقةً من النّاس توضّأت، واستقبلت بيوت الله لأداء صلاة الفجر، تُكبّر في طريقها وتُسبّح أو تستاك، قال تعالى: ﴿في بُيوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرفَعَ وَيُذكَرَ فيهَا اسمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بِالغُدُوِّ وَالآصالِ﴾ [النور: ٣٦].

بينما أضعاف هؤلاء ما يزالون في فراشهم، وبعض البيوت تَجدُ الأب والأمّ يُصَلُّون ويدعون، أبنائهم وفتياتهم في سُباتهم!

وما أن تأتي السّابعة –والتي يكونُ فيها وقتُ صلاة الفجر قد خرج–، تتحوّل الرّياض إلى حركةٍ موّارةٍ، وطرقاتٍ تتدافع، ومتاجر يرتطم النّاس فيها

أعرف كثيرًا من الآباء والأمّهات يَودُّون لو أنَّ أبناءهم صَلّوا الفجر في وقتها، يودُّون فقط، لكن لا شيء يتجاوز ذلك، ولو تأخّر الابن دقائق فقط عن المدرسة لرأيت التوتّر والانفعال باديًا عليهم وهم يستخدمون كلّ الألفاظ المؤثّرة ليستيقظ!

- **هل هُناكَ عَيبٌ بأن يهتمّ النّاس بحصول أبنائهم على شهاداتٍ ليتوظّفوا؟**

لا طبعًا، بل هذا مَحمودٌ، ومن العيب أن يبقى عالةً على غيره، ولكن هل يمكن أن تكون الشّهادات والوظائف أهمّ من الصلاة؟! أنا لا أتكلّم عن صّلاة الجماعة -مع أنّ وجوبها هو الرّاجح-، بل عن أداء الصّلاة في وقتها! وهي ليست مسألةً خلافيّةً، فكلُّ العلماء يعدّون إخراج الصّلاة عن وقتها أعظم الكبائر، وحتّى بعضهم يعدّها من نواقض الإسلام!

وهل صارت الدّقّة في مواعيد حضورنا للدّوام أعظم في نفوسنا من رُكنٍ يترتّب عليه الخروج من الإسلام؟

هذه المقارنة الأليمة بين السّاعة الخامسة والسّابعة هي أكثر صورةٍ مُحرجةٍ تَكشِفُ لنا كيف صارت الدّنيا في نفوسنا أعظم من ديننا، ، مقارنةٌ نستذكر من خلالها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التّوبة: ٢٤]، وهي آيةٌ تُلخّص شؤون الدّنيا كافّةً، فهل بلغنا الحال الموصوف في الآية؟ ألم تصبح الأموال التي نقترفها والتّجارة التي نخشى كسادها أعظم في النّفوس من الله ورسوله؟!

حين تقارن بين المشهدين تتذكّر قول الله تعالى: ﴿بَل تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنيا ۝ وَالآخِرَةُ خَيرٌ وَأَبقى﴾ [الأعلى: ١٦،١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبّونَ العاجِلَةَ وَيَذَرونَ وَراءَهُم يَومًا ثَقيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧].

- تأمّل نصيحة أهل العلم لمن كان شغوفًا بالدّنيا وحطامها: ﴿وَقالَ الَّذينَ أوتُوا العِلمَ وَيلَكُم ثَوابُ اللَّهِ خَيرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا وَلا يُلَقّاها إِلَّا الصّابِرونَ﴾ [القصص: ٨٠].
- وتأمّل في تفريط الأهل والأزواج والأبناء في أمر بعضهم البعض بالصّلاة ثمّ استحضر ثناء الله ﷻ على نبيّه إسماعيل حيث قال: ﴿وَاذكُر فِي الكِتابِ إِسماعيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ وَكانَ رَسولًا نَبِيًّا ۝ وَكانَ يَأمُرُ أَهلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِندَ رَبِّهِ مَرضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤،٥٥].

هذه المقارنة بين مشهدَيْ الخامسة والسّابعة هي من أهمّ المفاتيح لمن يريد أن يعرف منزلة الدّنيا في قلوبنا مقارنةً بدين الله، فالصّلاة هي رأس شعائر الإسلام، بل وقُبِضت روح رسول الله ﷺ وهو يوصي أمّته بها مُكرِّرًا "الصّلاة.. الصّلاة!!".

ويرى كثيرٌ من أهل الأهواء الفكريّة أنّ الحديث عن الصّلاة أمرٌ هامشيٌّ لا يساوي شيئًا عند ما يسمّونه «الحراك الفكري»، وقد ذكر الله الصّلاة في كتابه في بِضعٍ وتسعين موضعًا، وهؤلاء يعتبرونها شيئًا ثانويًّا في الخطابات التّنمويّة الإصلاحيّة.

فلنتأمّل في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ولنستذكر أنّ ابن تيميّة –رحمه الله– عندما سُئل عمّن يُؤخّر صلاة النّهار إلى اللّيل وصلاة اللّيل إلى النّهار؟ أجاب بعدم الجواز، وأنّه تجب عقوبتُه، بل قتلُه بعد أن يُستتاب، فإن تاب والتزم أن يصلّي في الوقت أُلزم بذلك، وإن لم يتب يُقتل.

وحين تجد شخصًا من المنتسبين للطّوائف الفكريّة المعاصرة يقول لك "مشكلة المسلمين في دنياهم لا في دينهم"، فقل له: قارن بين السّاعة الخامسة والسّابعة صباحًا وستعرف الحقيقة!

السجود بين السِّهام:

بعد تناول مشهد السّاعة الخامسة والسّابعة في الفصل السّابق، سنُوَسِّع الآن الأمر إلى مشاهد اجتماعيّةٍ شبيهةٍ، فسأذكر أحداثًا منفصلةً أُخبرت بها، أو رأيتُ بعضها، ثمّ سنضعها تحت مجهر القرآن.

حدّثني أحدهم قائلًا: كنت ذاهبًا لأراجع في معاملةٍ لي، فلمّا حضر وقت الصّلاة تقدّم شخصٌ وأقامها فاجتمعنا وصلّينا وراءه، وكان الملفت للنّظر، وجود أشخاصٍ هنالك لم يصلّوا معنا!

وكنت مرّةً في طائرةٍ متّجهةٍ للسّعودية، وكانت تغصّ بأُناسٍ عليهم سيماء أهل البلد، وعندما حضر وقت صلاة الفجر اجتمع عددٌ من المسافرين لقضائها، لكنّ عشرات المسافرين لم يغادروا مقاعدهم للصّلاة!

هذه بعض الظّواهر والمشاهد الاجتماعيّة الأليمة في التّعامل مع عمود الإسلام، ولتحليل هذه المشاهد، علينا أن نتناول المنزلة التي وضعها الله للصّلاة.

قد أَمَر الله المجاهدين بصلاة الجماعة وهم على خطّ النّار، ولم يأذن لهم بتركها برغم ما تستلزمه حالتهم من ترك بعض شروط وواجبات الصّلاة المعروفة، فقال تعالى: ﴿وَإِذا كُنتَ فيهِم فَأَقَمتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلتَقُم طائِفَةٌ مِنهُم مَعَكَ وَليَأخُذوا أَسلِحَتَهُم فَإِذا سَجَدوا فَليَكونوا مِن وَرائِكُم وَلتَأتِ طائِفَةٌ أُخرى لَم يُصَلّوا فَليُصَلّوا مَعَكَ وَليَأخُذوا حِذرَهُم وَأَسلِحَتَهُم وَدَّ الَّذينَ كَفَروا لَو تَغفُلونَ عَن أَسلِحَتِكُم وَأَمتِعَتِكُم فَيَميلونَ عَلَيكُم مَيلَةً واحِدَةً وَلا جُناحَ عَلَيكُم إِن كانَ بِكُم أَذًى مِن مَطَرٍ أَو كُنتُم مَرضى أَن تَضَعوا أَسلِحَتَكُم﴾ [النساء: ١٠٢]. فكيف يُبيحُ الله تعالى لرجلٍ ينامُ فوق فراشٍ وثيرٍ أن يدع الصّلاة؟!

وقد جاءت آية الأمر بالصّلاة مصاحبةً للتّرهيب، فقال تعالى: ﴿وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكونوا مِنَ المُشرِكينَ﴾ [الرّوم: ٣١]، فإذا كان ترك الصّلاة من صفات المشركين، فكيف يرضى المسلم لنفسه أن يكون بهذه المنزلة؟

ولا يكفي مجرّد القيام إلى الصّلاة لرفع التّهديد والوعيد الذي جاء في القرآن، فالله ذكر عن المنافقين أنّهم يُصلّون، ولكن انظر كيف وصف صلاتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذا قاموا إِلَى الصَّلاةِ قاموا كُسالى﴾ [النّساء: ١٤٢]، ووصف النَّبيّ ﷺ صلاة المنافق قائلًا: "تلْكَ صلاةُ المنافقِ، يجلس يرقبُ الشَّمسَ، حتّى إذا كانت بينَ قرني شيطانٍ قامَ فنقرَها أربعًا لا يذْكرُ اللَّهَ فيها إلَّا قليلًا".

ألا يخشى المسلم المتكاسل في الصّلاة أن يكون طيلة حياته إنّما يُمارس «صلاة منافقٍ»؟!

وتمعّن كيف جعل الله الصّلاة «تصوغ أخلاقنا» وتُربّينا، وتُهَذِّبُ سُلُوكيّاتنا، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشاءِ وَالمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، "فإنّ الصّلاة إذا أتى بها كما أُمر، نهته عن الفحشاء والمنكر، وإذا لم تنههُ دلَّ على تضييعه لحقوقها" كما قال الإمام ابن تيميّة.

وأنبياء الله لم يعتنوا بإقامة الصّلاة فقط، بل تضرّعوا لله سبحانه بأن يُعينهم عليها، كما قال إبراهيم عليه السّلام: ﴿رَبِّ اجعَلني مُقيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتي رَبَّنا وَتَقَبَّل دُعاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩، ٤٠].

وقد شرع الله العبادات كلّها عبر الوحي، إلّا الصّلاة، فعرج برسوله ﷺ حتّى سمع فرضيّتها من الله ﷻ مباشرةً، وعرج به إلى موضع يُسمع فيه صريف الأقلام، فهذا الوضع الذي اختاره الله لتشريع الصّلاة لا يُمكن إلّا أن يكون له دلالاتٌ عميقةٌ حول منزلة الصّلاة وشرفها عند الله ﷻ.

وقد روى أبو داودٍ بسندٍ جيّدٍ عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: "كان آخر كلام رسول الله ﷺ: الصّلاة الصّلاة، اتّقوا الله فيما ملكت أَيمَانُكم".

وأَمَر الله تعالى ملائكته بالعُروج من السَّماء إلى الأرض والعكس في وظائف أمرهم الله بها، واللّافت أنَّ الوقت الذي عيَّنه الله لملائكته للنّزول والعُروج مُرتبطٌ بأوقات الصّلاة، كما قال النّبيّ ﷺ: "يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ، ويجتمعون في صلاةِ الفجر وصلاةِ العصرِ، ثمَّ يَعرُجُ الَّذين باتوا فيكم فيسألُهم وهو أعلمُ بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصلُّون".

وقد يخسر المرء أعماله الصّالحة بمجرّد التّفريط في صلاته، فروى البخاريّ عن أبي المليح قال: "كُنَّا مَعَ بُرَيْدَةَ فِي غَزْوَةٍ فِي يَوْمٍ ذِي غَيْمٍ، فَقَالَ: بَكِّرُوا بِصَلاَةِ العَصْرِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»"، وكان ﷺ يُوقِظُ أحبابه لقيام اللّيل -كما ورد من حديث عليٍّ رضي الله عنه- وهي صلاة نافلةٍ، فكيف بالفريضة؟!

بعد التّدبّر في هذا كلّه، لا يملك الباحث إلّا أن تستبدّ به الحماسة لإحداث ثورةٍ تصحيحيّةٍ في وضع الصّلاة في المجتمع.

السَّهر المجهول:

تتحدّث كتب النّفس والنّصائح الطّبّيّة ونحوها عن «مشكلة السّهر»، ويطرحون لها أساليب للعلاج، لكن ثمّة نوع سهرٍ آخر يتغافلون عن ذكره، وهو سهر يذكره الله ﷻ في كتابه، ألا وهو «السّهر المجهول».

ذكر الله ﷻ فريقًا حصد السّعادة الأبديّة، وكان ذلك بسبب «السّهر المجهول»، قال تعالى: ﴿إِنَّ المتَّقينَ في جَنّاتٍ وَعُيون ۝ آخِذينَ ما آتاهُم رَبُّهُم إِنَّهُم كانوا قَبلَ ذلِكَ مُحسِنينَ ۝ كانوا قَليلًا مِنَ اللَّيلِ ما يَهجَعونَ﴾ [الذّاريات: ١٥،١٦،١٧].

تأمّل كيف كان سبب سعادتهم أنَّ نومهم باللّيل «قليلٌ»، أمّا باقي ليلهم فيذهب بالسّهر في ذكر الله، والتَّضرُّعِ والابتهال بين يديه، وقد جعل الله هذا الابتهال الإيمانيّ أحد معايير العلم حينما قال: ﴿أَمَّن هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجِدًا وَقائِمًا يَحذَرُ الآخِرَةَ وَيَرجو رَحمَةَ رَبِّهِ قُل هَل يَستَوِي الَّذينَ يَعلَمونَ وَالَّذينَ لا يَعلَمونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلبابِ﴾ [الزّمر: ٩].

فلاحظ كيف جعل الله سبحانه وتعالى القُنوت آناء اللّيل مؤشّرًا على علم القانت، وعدم القُنوت مؤشّرًا على جَهلِ صاحبه؛ فالقرآن اعتبر العلم بالثّمرة لا بالآلة، وثمرة هذا العِلم هي العبوديّة لله ﷻ، فمن أضاع الثّمرة لم تنفعه الآلة.

ثمّ لاحظ كيف وصفت الآية تنوّع العبادات: ﴿ساجِدًا وَقائِمًا﴾، وكيف وصفت أحاسيس هذا القانت: ﴿يَحذَرُ الآخِرَةَ وَيَرجو رَحمَةَ رَبِّهِ﴾، فهذا الوصف لأحاسيس المتنَسِّك تُوحِي بالسَّكِينَة التي يعيشها، ولذّة المنَاجاة التي يتذوّقها.

من الواضح أنّ الله صوّر لنا هذا المشهد لأنّه يريدنا أن نكون قانتين آناء اللّيل ساجدين وقائمين نحذَرُ الآخرة ونرجو رحمة ربّنا.

وذكر الله ﷻ المؤشّرات الظّاهرة التي تدلّ على الإيمان الباطن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّما يُؤمِنُ بِآياتِنَا﴾، وفي ثنايا تلك المؤشّرات صوّرت الآيات مشهد المؤمن الذي حالما يتذكّر الآخرة يُجافيه النّوم ويهبّ للانطراح بين يدي الله، قال تعالى: ﴿تَتَجافى جُنوبُهُم عَنِ المَضاجِعِ يَدعونَ رَبَّهُم خَوفًا وَطَمَعًا وَمِمّا رَزَقناهُم يُنفِقونَ﴾

[السّجدة: ١٦]، بل وتأمّل بلاغة القرآن كيف جعل البيات قيامًا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ يَبيتونَ لِرَبِّهِم سُجَّدًا وَقِيامًا﴾، إنّهم يبيتون، ولكنّهم يبيتون لربّهم سُجّدًا وقِيامًا!

وقد جعل الله السَّهر الإيمانيّ من أهمّ عناصر التّأهيل الدَّعَويّ في بداية الدّعوة النّبويّة، فقال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيلَ إِلّا قَليلًا﴾ [المزمّل: ١،٢]، ولم يكن هذا الفعل مختصًّا برسول الله، بل كان أصحابه يُصَلّون مَعهُ تِلكَ الصَّلوات التي تَستغرِقُ اللّيل، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أَنَّكَ تَقومُ أَدنى مِن ثُلُثَيِ اللَّيلِ وَنِصفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذينَ مَعَكَ﴾ [المزمّل: ٢٠].

يرى بعض المنتسبين للدّعوة أنّ من أهمّ مقوّمات إدارة الوقت والنّجاح هو أخذ أكبر قدرٍ من النّوم!

يا الله! هل بَلَغَت غُربة الدِّين هذا المبلغ؟ صحيحٌ أنّ قيام اللّيل نفلٌ، ولكن لماذا صار النّفل يغيب عن وصايانا؟ ولو كان النّوم أنفع لنا لما ندب الله لنا ضدّه في كتابه، ومن يرى صعوبةً في قيام اللّيل فما عليه إلّا أن يبدأ ولا يُؤجّل الأمر، وليتوكّل على الله ويستعن به.

صوّرت الآيات السّابقة مرتبتين من قيام اللّيل:

- قيام الفرض كصلاة العشاء.
- قيام الكمال كالتّهجّد.

ويخطئ بعض المفسّرين في حمل الآيات على إحدى المرتبتين لا كليهما، وبعضهم يذكر مرتبةً واحدةً على سبيل "التّفسير التّمثيليّ" لا "تفسير الحصر والحدّ" وهذا مشهورٌ عند السّلف، وقد نبّه ابن عطيّة على هذه القاعدة قائلًا: "وإنّما عبّر علماء السّلف في ذلك بعباراتٍ على جهة المثالات فجعلها المتأخّرون أقوالًا"، وأقام ابن تيميّة قاعدةً كاملةً من قواعد التّفسير على هذا القول.

• ما وظيفة هذا السَّهر الإيمانيّ؟

أعظم وظائفه أنَّه "استمدادٌ"، فهو في تلك اللّحظات التي يقف فيها بين يدي ربّه يستمدّ من خزائن رحماته، من أرزاقه، من العلم، من التّوفيق، من الهداية، إنّها لحظات الدَّعم المفتوح، ورَحمَاتُ الله إذا فُتِحَت، فلا تسأل عن أمدائها: ﴿ما يَفتَحِ اللَّهُ لِلنّاسِ مِن رَحمَةٍ فَلا مُمسِكَ لَها﴾ [فاطر: ٢].

هل مجتمعنا خيرٌ من مجتمع رسول الله ﷺ؟:

أعرف كاتبًا يذيّل كتاباته بعبارة: "مع الالتزام طبعًا بالضّوابط الشّرعيّة"، لكنّه في المجالس الفكريّة يُعلن بأنّ العلمانيّة هي الحلّ الأمثل للتّقدّم بالمجتمع، وأنّ الدِّين يجب أن يُحوَّل إلى خيارٍ شخصيٍّ فقط، فتأمّلت في هذا التّناقض وقلت لأحدهم: أنا لا أشكّ أنّ هذه حالة "نفاقٍ فكريٍّ".

فقال لي معترضًا: كيف تدمغه بوصف النّفاق وهو يقول: لا إله إلا الله ويُصلّي ويصوم ويتصدّق؟ فتهيّبت وسكتّ.

وبعد زمنٍ صِرت أهتمّ بطريقة استعراض القرآن للشّخصيّة المنافقة، وكم كنت مندهشًا حين رأيت القرآن يصف المنافقين بأنّهم يُصَلُّون ويتصدّقون، ويذكرون الله! قال تعالى: ﴿إِنَّ المنافِقينَ يُخادِعونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُم وَإِذا قاموا إِلَى الصَّلاةِ قاموا كُسالى يُراءونَ النّاسَ وَلا يَذكُرونَ اللَّهَ إِلّا قَليلًا﴾ [النّساء: ١٤٢]، وقال أيضًا: ﴿قُل أَنفِقوا طَوعًا أَو كَرهًا لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُم إِنَّكُم كُنتُم قَومًا فاسِقينَ﴾ [التّوبة: ٥٣].

أوّلًا: أنّ المنافق يجد مشقّةً كبيرةً في القيام إلى الصّلاة، ذكر النّبيّ ﷺ: "تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا"، وهذا في من يُؤخّر، فكيف بمن يطبق على إخراج الصّلاة عن وقتها؟!

كنت أظنّ سابقًا أنّ النِّفاق يكون عن علمٍ وقرارٍ، وأنّه مُؤامرةٌ تُتّخَذ بتخطيطٍ شاملٍ، ولكنّني اكتشفت بأنّ المنافق قد لا يعلم بنفاقه، فقد يقع النّفاق في القلب بمزحٍ أو بتصرّفاتٍ نعدّها من هوامش الأمور، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلتَهُم لَيَقولُنَّ إِنَّما كُنّا نَخوضُ وَنَلعَبُ قُل أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسولِهِ كُنتُم تَستَهزِئونَ ۝ لا تَعتَذِروا قَد كَفَرتُم بَعدَ إيمانِكُم﴾ [التّوبة: ٦٥،٦٦].

ثانياً: من صور النفاق أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتانا مِن فَضلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكونَنَّ مِنَ الصّالِحينَ ۝ فَلَمّا آتاهُم مِن فَضلِهِ بَخِلوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُم مُعرِضونَ ۝ فَأَعقَبَهُم نِفاقًا في قُلوبِهِم إِلى يَومِ يَلقَونَهُ بِما أَخلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدوهُ وَبِما كانوا يَكذِبونَ﴾ [التوبة: ٧٥،٧٦،٧٧]، تأمّل! أعقبهم الله ﷻ

نفاقًا في قلوبهم بالرّغم من أنّهم لم يفعلوا أكثر من البُخل بالمال بعد المعاهدة، فما الذي يؤمّننا نحن حين نقصّر في أمرٍ علمنا تعظيم الله له ألّا يُعقبنا نفاقًا في قلوبنا؟

قال ابن أبي مليكة: "أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ"، لقد كنت أفهم حديثه بأنّ سببه هو "ورع الصّحابة" فقط، ولكنّ هذه الآية ﴿فَأَعقَبَهُم نِفاقًا في قُلوبِهِم﴾ والتي شاهد الصّحابة واقعتها عيانًا، هي التي جعلتهم يفهمون النّفاق على أنّه "أثرٌ" لتصرّفاتٍ معيّنةٍ، وليس "قرارًا" يتّخذه المرء.

• لكن هل يمكن أن نعرف المنافق؟

قد بيَّن الله تعالى أنَّ المنافقين أنواعٌ:

١. بعضهم مستترون لا يُعرفون.

٢. وبعضهم يُصرّح لبعض النّاس لكن لا يُعلن ذلك.

٣. وبعضهم يظهرُ النِّفاق فقط من ملامح أفكاره وخطابه، قال تعالى: ﴿وَلَو نَشاءُ لَأَرَيناكَهُم فَلَعَرَفتَهُم بِسيماهُم وَلَتَعرِفَنَّهُم في لَحنِ القَولِ﴾ [محمد: ٣٠].

وقد كان الصّحابة يعرفون بعض المنافقين بأعيانهم من أفكارهم ولحن خطابهم، فقد قال صحابيٌّ في شأن صلاة الجماعة: "وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ أو مريضٌ"، فمعرفة الصّحابة لبعض المنافقين بأعيانهم ينفي مقولة "أنّ النّفاق كلّه حالةٌ قلبيّةٌ مستترةٌ لا يمكن معرفتها مطلقًا"، بل هذه المقولة تُفضي إلى تعطيل جُملةٍ من أحكام القرآن في المنافقين:

— أمرنا الله بجهادهم: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفّارَ وَالمنافِقينَ وَاغلُظ عَلَيهِم﴾ [التّحريم: ٩].

— نهانا الله تعالى عن الانقسام في الموقف من المنافقين، وأمَرَنا أن نكون كلمةً واحدةً في مواجهتهم، قال تعالى: ﴿فَما لَكُم فِي المنافِقينَ فِئَتَينِ وَاللَّهُ أَركَسَهُم بِما كَسَبوا أَتُريدونَ أَن تَهدوا مَن أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [النّساء: ٨٨].

— نهى القرآن عن الميل لنصائح المنافقين والرُّضُوخ لضغوطهم، قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَالمنافِقينَ﴾ [الأحزاب: ١].

– نهانا الله عن إرخاء الآذان لهم، قال تعالى: ﴿وَفيكُم سَمّاعونَ لَهُم﴾ [التّوبة: ٤٧].

تدلّ كلّ هذه الآيات على إمكانيّة معرفة بعض المنافقين بأعيانهم، ولو لم يكن ذلك بالإمكان، لكان ذِكْرُ هذا كلّه في القرآن عبثًا؛ حاشاه أن يكون كذلك.

- **ما علاقة كلّ ذلك بعنوان الفصل؟**

عن الأسود قال: "كُنَّا في حلقة عبد الله، فجاء حذيفة حتّى قام علينا فسلّم ثمّ قال: لقد أُنزل النّفاق على قومٍ خيرٍ منكم"، وقصد بذلك مجتمع النّبيّ ﷺ، فإذا نزل في قومٍ خَيرٍ منَّا، فكيف نَستبعدُ وجود النِّفاق بيننا؟!

الرَّاضون:

من الأشياء التي تبتهج بها نفسي حين يتهادى إلى أذني صوت أحد كبار السّنّ وهو يذكر الله ويسبّحه، ومن الأمور التي كانت تُثيرُ انتباهي، أنَّ كلّ من رأيت من كبار السّنّ الصّالحين اللّاهجين بذكر الله يعيشون رضًا نفسيًّا عجيبًا!

- **كيف يكون التّسبيحُ سائر اليوم سببًا من أسباب الرّضا النّفسيّ؟!**

يقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وَقَبلَ غُروبِها وَمِن آناءِ اللَّيلِ فَسَبِّح وَأَطرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرضى﴾ [طه: ١٣٠].

لاحظ كيف استوعب التَّسبيحُ سَائِرَ اليوم: قبل الشّروق، والغروب، وآناء اللّيل، وأوّل النّهار وآخره؛ ولذلك شَرعَ الله أعظم التّسبيح في هذه المواضع، وهو «الصَّلاة»، والرِّضا في هذه الآية عامٌّ في الدّنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَد نَعلَمُ أَنَّكَ يَضيقُ صَدرُكَ بِما يَقولونَ ۝ فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَكُن مِنَ السّاجِدينَ﴾ [الحجر: ٩٧،٩٨]، فانظر كيف أرشدت هذه الآية إلى الدَّواءِ من ضيق الصَّدرِ، وتأمّل كيف جعلت الآية التّسبيح ترياقًا تستطبُّ به النّفس، فيا خسارتنا على تلك اللّحظات التي مضت من أعمارنا ولم نملأها بتسبيحٍ وذِكرٍ لله!

تلك الدّقائق من أعمارنا أُعطيت لنا ليختبرنا الله فيها، فهل هذه الدّقائق التي تنفذ الآن من أعمارنا سجّلنا فيها تسبيحًا لله، أو كانت مُستغرقةً في عملٍ صالحٍ؟ أم احترقت في الفُضُول؟ فضول الكلام، وفضول السَّماع...

ومن أعجب ما زوّدنا به القرآن أنّنا نَعيشُ في عالمٍ يَعُجُّ بالتّسبيح من حولنا: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعدُ بِحَمدِهِ﴾ [الرّعد: ١٣]، ﴿وَسَخَّرنا مَعَ داوودَ الجِبالَ يُسَبِّحنَ وَالطَّيرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فأخبرنا خبرًا عامًّا بأنّ كُلّ الكائنات من حولنا تُسبّحُ لكنّنا لا نَفقَهُ تسبيحها، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبعُ وَالأَرضُ وَمَن فيهِنَّ وَإِن مِن شَيءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ، وَلكِن لا تَفقَهونَ تَسبيحَهُم﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأخبرنا القرآن بأنّ كلّ كائنٍ من هذه الكائنات له مسلكٌ خاصٌّ في التّسبيح، وتسبيحها ليس خَبرًا مجازيًّا، فهي تُسبّح تَسبيحًا حقيقيًّا، وقد رُوِيَ عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: "ولقد كُنَّا نَسمعُ تسبيح الطّعام وهو يُؤكَل"، وهذه حالةٌ خاصّةٌ في زمنٍ خاصٍّ، أمّا تَسبيحُ الكائنات في نظامها العامّ فهو بِلُغةٍ خاصّةٍ ﴿وَلكِن لا تَفقَهونَ تَسبيحَهُم﴾.

فإذا استشعر المؤمن هذا المشهد، وأخذ يَنظُرُ في السَّماء والأرضِ ويَتأمّلُ في هذه الكائنات، ثمّ يَستعيدُ كلام الله عن تسبيح جميع الكائنات، فإنّه لا يكاد يُطيق المهابة والإحساس بالعظمة الإلهيّة التي تتوارد على قلبه، فإذا أَضافَ إلى ذَلِكَ:

— أنَّ الله استفتح بالتّسبيح سَبع سُورٍ.

— أنَّ الصَّلاة، التي هي أَعظمُ شعائرِ الإسلام، جَعلَ الله في رُكُوعِها وسُجُودِها تَسبيحًا.

— تَسابيحَ الأنبياء، كقول موسى عليه السّلام: ﴿كَي نُسَبِّحَكَ كَثيرًا﴾ [طه: ٣٣،٣٤]، وكتسبيح يونس الذي كان سببًا لنجاته، قال تعالى: ﴿فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ ۝ لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلى يَومِ يُبعَثونَ﴾ [الصّافات: ١٤٣،١٤٤].

— أنَّ الملائكة لا تَفتُرُ عن التَّسبيح، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحونَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ لا يَفتُرونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

– أَخبرنا الله عن لهجِ ألسنة أهل الجنّة السّعداء بالتّسبيح، قال تعالى: ﴿دَعواهُم فيها سُبحانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

فإذا ضَمَّ المتَدبِّرُ هذه الشَّواهد تغيّرت نَظرتُهُ للتّسبيح، وأَدركَ أنَّ للتّسبيح مَنزِلةً عند الله تَفوقُ المنزلة التي نتصوّرها عادةً، وأيّ شيءٍ أَجملُ من قضاءِ دقائق الانتظار، والطّريق، ولحظات الصّمت، في تسبيح الله؟!

أقوى النّاس:

كثيرًا ما يرتبطُ في أذهاننا أنَّ قوّة النّتائج مُرتبطةٌ بما يَظهرُ من قوّة الأسباب، كثيرًا ما نتصوّر أنَّ أقوى النّاس هُم من يمتلكون أقوى الأسباب، والحقيقة هي "أنَّ الاستعانة بالله، والتَّوكّل عليه واللّجأ إليه والدّعاء له، هي التي تُقَوّي العبد، وتُيسِّرُ عليه الأمور، ولِذَلِكَ قال بعض السّلف: من سَرَّهُ أن يكون أقوى النَّاسِ فليتوكّل على الله" كما قال ابن تيميّة.

فقوّة التّوكّل هي المدد الحقيقيّ أمام صعوبات الحياة، ويتفاوت النّاس في قوّتهم بحسب ما في قلوبهم من التَّوكّل الشّرعيّ.

- **ولكن لماذا نتوكّل على الله؟**

١. نتوكّل على الله لأنَّ التّوكّل معيار الإيمان، التّوكّل هو اللّحظة التي تكشف مصداقيّة إيماننا بالله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلوا إِن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فإذا تدبّر قارئ القرآن هذه المنزلة، تغيّرت نَظرتُهُ كُليًّا لموقع التَّوكُّلِ في حياته.

٢. نتوكّل على الله لأنَّ الله تعالى أَعظمُ وكيلٍ، حتّى أنّ الله سبحانه قال في خمسة مواضع من القرآن ذات الجملة: ﴿وَكَفى بِاللَّهِ وَكيلًا﴾ وفي سورة النّساء: ثلاث مرّاتٍ، وفي سورة الأحزاب: مرّتين. ألا يَكفيكِ يا نَفسُ أنَّ الله هو الوكيل؟

٣. نتوكّل على الله لأنَّه هو الذي يكفينا، ومن أعظم كفايةً من الله؟! ﴿وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسبُهُ﴾ [الطّلاق: ٣]. ومن كان الله حَسبهُ، فكيف سَتكونُ قُوّتُهُ بين النَّاس؟!

الخالقُ سُبحانهُ يَفتحُ فرصةً لعبده ليكون الله تعالى هو حَسبهُ إذا تَوكَّلَ عليه، ومع ذلك يُقصِّرُ القلب في الانكباب على الله، فيُفوِّت على نفسه هذه القوّة العظيمة!

٤. ونتوكّل على الله لأنَّ التَّوكّل على الله سبحانه يحمينا من سلطة الشّيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلطانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنوا وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلونَ﴾ [النّحل: ٩٩].

فالشَّيطان حَاضِرٌ في حياتنا يُزِلّ، ويُوسِوس، ويَفتِن، ويُضِلّ، ويُزيّنُ لنا الباطل فيضعه في قالب الأمر الطّبيعيّ، وهذا من أخطر أساليب الشَّيطان.

الشَّيطانُ يَسعى ليُنسينا أمر الله، سواءً كان:

١. نسيان الذُّهُول: بمعنى غياب العِلمِ أو السَّهوِ، وهو مَعفوٌّ عنه.

٢. نِسيان الغفلة: وهو حُضُور العلم وغياب خشية الله، وهو غير مَعفوٍّ عنه.

وكلا نَوْعَي النّسيان ممّا تحتمله لغة العرب، وقد جاء هذان الوجهان في القرآن.

وقد صوّر الله لنا تفصيلًا في كتابه أساليبَ ومؤامرات وخطط الشّيطان، ومن بعض ما ذكر:

— أن الشّيطان يُزِّل: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطانُ عَنها فَأَخرَجَهُما مِمّا كانا فيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

— وأخبر عن استخفاف الشّيطان لأهل الباطل: ﴿أَلَم تَرَ أَنّا أَرسَلنَا الشَّياطينَ عَلَى الكافِرينَ تَؤُزُّهُم أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

— وأخبرنا عن خُبثِ الشَّيطان في تغييب واستكنان المطلوب الشّرعيّ: ﴿وَإِمّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ فَلا تقعُد بَعدَ الذِّكرى مَعَ القَومِ الظّالِمينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

— وأخبر عن رسم الشَّيطَانِ للباطل في قَالبِ الأمر الجميل، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ولذلك ترى الرّجل يَرتكِبُ المعصية، ويُؤنِّبُهُ ضَميرُهُ زمنًا، ثُمَّ لا يَزالُ الشَّيطانُ به حتّى تَراهُ بعد زمنٍ يُدافِعُ عن المعصية ويراها أَمرًا طبيعيًّا.

— من أَعجبِ ما يَقومُ به الشَّيطان سُرعة التَّنصّل بعد أن يقع الإنسان بِشباكه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيطانِ إِذ قالَ لِلإِنسانِ اكفُر فَلَمّا كَفَرَ قالَ إِنّي بَريءٌ مِنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

وغيرها الكثير من أعمال الشّيطان وخططه، فمن تَأمَّل أعماله أَدرَكَ شِدّة خطره، حتّى أنّ الإمام ابن القيّم لما لاحظ هذا المعنى ألّف كتابه (إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان).

٥. ومن أعظم دوافع التّوكّل أنّنا نتوكّل على الله شُكرًا له، وامتنانًا؛ لأنَّه هدانا ﴿وَما لَنا أَلّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَد هَدانا سُبُلَنا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فَحِين تَرى مِنَّة الله عليك إذ شَرَّفك بالرُّقيّ العَقَدِيّ، يُوجِبُ لَكَ هذا مزيدًا من التَّوكّل والتَّعلّق بالله.

- **ولكن قد يثور هاهنا سؤالٌ: متى نتوكّل بالضّبط؟**

التَّوكُّل له مرتبتان:

١. **المرتبة الأولى**: توكّلٌ عامٌّ لا ينفكُّ المؤمن عنه؛ بحيث يكون قلبه مُعلّقًا بالله بشكلٍ مُستَمِرٍّ بمقتضى توحيد الله وألوهيّته، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنونَ﴾ [التّغابن: ١٣]، فهذا التَّوكّل مِعيارُ الإيمان.

٢. **المرتبة الثّانية**: هي التَّوكّل في الأمر الخاصّ، وهذا يكون بعد العزم عليه مباشرةً: ﴿فَإِذا عَزَمتَ فَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

حسنًا! هذا التّوكّل الذي أبدأ القرآن فيه وأعاد، ما هو بالضّبط؟ أو بصيغةٍ أخرى، كيف أَكونُ مُتوكّلًا؟

التَّوكُّل: هو اشتغال الجوارح بالأسباب، واشتغال القلب بالله.

فالتّوكّل لا يعني ترك الأسباب، وقد انتقد ابن القيّم الطّائفة الصّوفيّة التي ظنّت ذلك، فقال: "مُدّعِين لأنفسهم حالًا أكمل من حال رسول الله وأصحابه، إذ لم يكن فيهم أحدٌ قطّ يفعل ذلك، ولا أخلّ – النّبيّ والصّحابة– بشيءٍ من الأسباب [...] وهم أهل التّوكّل حقًّا".

وترى المتوكّل مع فعله للأسباب يَلهجُ بِالذِّكر، يَرقُبُ تَوفيقَ ربّه، ويُتَمتِمُ بالدُّعاءِ، فمن أَرادَ أن يعرف الطّمأنينة، وما هي السَّكِينَة، وأيّ شيءٍ هو راحة البال، فليُجرِّب التَّوكُّل...

تأمّل طمأنينة سيّدنا إبراهيم وهو يرى أعمدة اللّهب التي أضرمها قومه ليُحرّقوه: ﴿قالوا حَرِّقوهُ وَانصُروا آلِهَتَكُم إِن كُنتُم فاعِلينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فهو لم يجزع ولم يلتمس منهم الرّحمة، بل كان يقول: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وكان هذا قوله حتّى "حين أُلقِيَ في النّار"، كما جاء في حديث ابن عبّاسٍ.

وقالها مُحمّد حين قالوا: ﴿إِنَّ النّاسَ قَد جَمَعوا لَكُم فَاخشَوهُم فَزادَهُم إيمانًا وَقالوا حَسبُنَا اللَّهُ وَنِعمَ الوَكيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ألا تُلاحِظ روعة الموقِفِ؟ يزدادون إيمانًا في لحظةٍ تَنهارُ فيها كثيرٌ من النُّفوس، رَبَّاهُ، ما أسعد المتوكّلين!

مِن الواضح من خلال التَّصوير القرآنيّ أنَّ التَّوكّل هو "حالةٌ قلبيّةٌ"، فإذا تدبّر القارئ وَصف الله لِلتّوكّلِ في القرآن، وكيف يَأمرُ به، فإنَّهُ يُدرِكُ حُبّ الله لهذه الحالة القلبيّة في عَبده، فهل ستنقضي هذه الدّنيا ونحنُ لم نتذوّق هذا المقام العالي، مَقام التَّوكُّل؟!

كأنكَ تراه:

قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلِقاءِ رَبِّكُم توقِنونَ﴾ [الرّعد: ٢].

أَليسَ عجيبًا أن تكون هذه التَّفاصِيلُ المهيبة في آيات الله الشّرعيّة والكونيّة من أجل أن تُرفرِفَ قُلُوبُنا نحن باليقين؟!

وأظهر الله لخليله إبراهيم من الآيات البديعة في الكون حتّى يَكمُلُ يقين الخليل: ﴿وَكَذلِكَ نُري إِبراهيمَ مَلَكوتَ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَلِيَكونَ مِنَ الموقِنينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

ومَدَحَ الله سُبحانه أحكامه الشَّرعيّة بالجمال، ولكنّ القرآن ذاته نبّه أنَّهُ لا يَتمتّعُ بكمال الفهم لحُسنِ أحكام الله إلّا من تطهّرت قلوبهم باليقين: ﴿وَمَن أَحسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكمًا لِقَومٍ يوقِنونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فالقلبُ كُلَّما ارتفع في مدارجِ اليقين زادت قُدرتُهُ على مُشاهدة المعَالِمِ الجماليّة لِأحكام الشّريعة، وكلّما تَكاثفَ ضَبابُ الشُّكوك والحيرة في أجواء قلبه تَعسَّر عليه رؤية جماليّات أحكام الشّريعة.

وجعل الله في هذا القرآن «رحمةً»، لكنّ انتفاع النّاس بها يتفاوت بحسب ما في قلوبهم من اليقين: ﴿هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِقَومٍ يوقِنونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، فكُلَّما تَعاظَمَ اليقينُ في قلب العبد تَنزلَّت عليه رحماتُ الله.

واليقينُ كذلك هو الطّريق للإمامة في الدِّين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلنا مِنهُم أَئِمَّةً يَهدونَ بِأَمرِنا لَمّا صَبَروا وَكانوا بِآياتِنا يوقِنونَ﴾ [السّجدة: ٢٤].

بل إنَّ القرآن رَسَم طريقة التّعامل مع الشّريحة التي تُعاني من نقصٍ في اليقين، فقال تعالى: ﴿فَاصبِر إِنَّ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَستَخِفَّنَّكَ الَّذينَ لا يوقِنونَ﴾ [الرّوم: ٦٠].

وفي الواقعة الشّهيرة حين جاء جبريل –عليه السّلام– وهو بصورة رجلٍ بشريٍّ إلى مجلسٍ اجتمع فيه النّبيّ ﷺ مع أصحابه، ثمّ جلس أمام الرّسول ﷺ وبدأ يسأله أسئلةً مرتّبةً هَرَمِيًّا، فسأله أوّلًا عن مفهوم الإسلام، فأجابه النّبيّ ﷺ، ثمَّ سأله عن الإيمان، فأجابه النّبيّ ﷺ كذلك، ثمَّ سأل عن أعلى مراتب الدِّين، فقال: "فأخبرني عن الإحسان؟"، فقال المصطفى: "أن تَعبُد الله كأنَّكَ تَراهُ، فإن لم تكن تَراه فإنَّه يراك"، فجعل النّبيّ الإحسان هو اليقين المطلق الذي تَنهارُ فيه الفوارق بين الغيب والشّهادة، فأعلى مراتب الدِّين هو سُلوكٌ قلبيٌّ محضٌ!

وهذه الحقيقة الباهرة لم يُخبر بها النّبيّ ﷺ خبرًا عارضًا، بل تمّ تنسيق مشهدٍ مهيبٍ يتحاور فيه سيّد الملائكة وسيّد البشر، جبريل ومحمد، والنّاس يستمعون، ليتلقّوا هذه الحقيقة الكبرى.

- **إذن فما هو اليقين؟**

اليقين: هو كَمالُ جَزمِ القلب بخبر الله ورسوله، وفراغه من التّردّد والارتياب، وهو أن يُصبح خَبرُ الله ورسوله كأنَّه "المُعاينة".

بعض الأمثلة من خبر الله ورسوله لنختبر يقيننا:

– أخبرنا الله تعالى: ﴿وَما أَنفَقتُم مِن شَيءٍ فَهُوَ يُخلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، فهل نَحنُ حين نَمُدّ أيدينا بِصَدقةٍ لِنضعها في يد مسكينٍ يتشبّع قلبنا يقينًا بأنّها لا تنقص من مالنا، بل سيُخلفه الله؟!

– ويقول الله تعالى: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادي عَنّي فَإِنّي قَريبٌ أُجيبُ دَعوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهل نحن إذا دعونا الله تعالى تمتلئ قُلُوبُنا يقينًا بقُربِ الله وإجابته، أم نحن ندعو الله باعتباره سلوكًا مطلوبًا فقط؟!

– وهل نجد في قلوبنا يقينًا بالوعود القرآنيّة التي وعدنا الله إيّاها؟ ﴿وَعدَ اللَّهِ لا يُخلِفُ اللَّهُ وَعدَهُ﴾ [الرّوم: ٦].

– والعلاقة بين وعد الله وعُبوديّة اليقين ليست مُجرّد استنباطٍ، بل القرآن ذاته أشار إليها، كما قال الله سبحانه: ﴿فَاصبِر إِنَّ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَستَخِفَّنَّكَ الَّذينَ لا يوقِنونَ﴾ [الرّوم: ٦٠].

ومن المواقف المحزِنَة حينما يُقارَن بين تعظيم الوحي لشأن اليقين وبين مقولة من يردّد أنّه "لا أحد يملك الحقيقة المطلقة"، برغم أنّ الحقيقة المطلقة في القرآن أصلًا!

فهل استطعنا أن نصل لعبوديّة اليقين التي هي أعظم مراتب الدّين، فنُخرج من قلوبنا كلّ ذرّة احتمالٍ وتردّدٍ؟!

لم نفعلها، وحُسِبَت علينا!

حين يقف الإنسان في اليوم الآخر، لحظة تسليم الصّحائف، فإنّه قد لا يتفاجأ كثيرًا من رؤيته لخطايا قام بها، وإنّما المفاجأة أن يجد في صحيفته خطايا لم يفعلها، ومع ذلك محسوبة عليه، فكيف حُسِبت عليه؟!

استمع إلى هاتين الآيتين: ﴿لِيَحمِلوا أَوزارَهُم كامِلَةً يَومَ القِيامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلّونَهُم بِغَيرِ عِلمٍ﴾ [النّحل: ٢٥]، ﴿وَلَيَحمِلُنَّ أَثقالَهُم وَأَثقالًا مَعَ أَثقالِهِم﴾ [العنكبوت: ١٣].

يا الله! كم قُلنا على الله بغيرِ عِلمٍ فتأثّر بقولنا البعض وتجرّأ على المعصية، فصارت خطيئته في صحائفنا ونحن لا نعلم! وكُلّما كرّر معصيته تكرّرت في صحائفنا، يُلاحقنا شؤم الجرأة على الشّريعة!

والله إنَّ الإنسان إذا جلس مع نفسه وأخذ يَتذكّرُ خطاياه، أَدركَ أنَّها كافيةٌ أن تُوبِق مُستقبله الأُخرويّ، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك معاصي أشخاصٍ آخرين لا يعرفهم.

والله إنَّ الغبن كلّ الغبن أن يرى المرء نفسه يوم القيامة يصطلي بنار جهنّم، لا لمعصيةٍ فعلها هو، وإنّما يُعاقَب على معصية غيره!

إذا كان الأمرُ بهذه الخطورة فكيف غفلنا عنه؟! إنّه الرَّانُ الذي غَلَّفَ القُلُوب حتّى غفلت عن فظائع وأهوال هي أقربُ للمرء من شراك نعله.

فيا ليتنا إذا أُثيرت في مجلسٍ من المجالس مسألةٌ شرعيّةٌ أن نتلو في أنفسنا قول الله تعالى: ﴿لِيَحمِلوا أَوزارَهُم كامِلَةً يَومَ القِيامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلّونَهُم﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَحمِلُنَّ أَثقالَهُم وَأَثقالًا مَعَ أَثقالِهِم﴾. ويا ليتنا نَسلَمُ من معاصينا، فضلًا عن أن نَسلَم من معاصي الآخرين!

خاتمة:

ما سبق كان نظراتٍ في بعض معاني الإيمان، وهذه المعاني ليست إلّا نماذجَ يسيرةً جدًّا ممّا احتواه القُرآن، وفي آيات القرآن بَحرٌ لا تُعرَفُ شَواطِئه من حقائق التّديّن وأسرار العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، والقارئ الكريم ليس بعاجزٍ بإذن الله أن يتدبّر القرآن.

والله أعلم، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.